محمد كمال المدائني

آسِرَةُ الْحُلْـم ــ آسِـرَةُ الأُقْحُـوَان

فِي الضَّبابِ الْخَفِيِّ الْمَحَطَّةُ شَيْءٌ مِنَ الْبَرْدِ والضِلِّ يلتفُّ مثل الخيوطِ
على قَدَمَيَّ الْوُجُومُ أوِ الهَمْسُ بَيْنَ بَنَاتٍ إِلَى حَائِطِ الجِصِّ لُذْنَ تَمَاوجتِ فِي
الْغَلَسِ الدَّائِرِيِّ احْتَرَقْتِ الغُبَارَ إِلَيَّ فَمَاذَا عَسَاكِ تقولِينَ لِي فِي الْمَحَطَّةِ
فِي عُتْمَةِ الْفجْرِ صَفْصَافَتَانِ مِنَ الضَّوْءِ تَنْطَفِئَانِ الْمَعَاطِفُ تَجْرُهَا الرِّيحُ فِي
السُّبُلِ الْمُتَعَرِّجَةِ الْبَرْدُ أَسْوَدُ و الظِّلُّ وَالْغُرَبَاءُ اللِّقَاءُ السَّرِيعُ بِإِيمَاءَةٍ أَوْ
مُصَافَحَةٍ وَ أَمُدُّ إِلَيكِ يَدَيَّ وَ وَجْهُكِ فِي لَمْعَةِ الشَّارِعِ الْمَطَرِيِّ
يُخَالِسُنِي الرُّؤْيَةَ أَنْتِ آسِرَةُ الْحُلْمِ آسِرَةُ الْأُقْحُوَانِ فَمَاذَا عَسَاكِ تَقولِينَ بَعْدُ

سَيَخْطَفُكِ الْفَجْرُ لِلْمَوْجِ فِي الْغَلَسِ الْغَامِضِ الدَّائِرِيِّ تَوَارَيْتِ فِي خَيْمَةٍ
لِلْغُبَارِ أَظَلُّ أُرَاقِبُ فِي وِحْدَتِي شَبَحَ امْرَأَةٍ تَخْتَفِي فِي الرَّصِيفِ الْمُبَعْثَرِ تَبْدُو
عَلَى مَدْرَجِ الْبَابِ تُطْبِقُ مِنْ خَلْفِهَا الْمِصْرَعَ الْخَشَبِيَّ الْبُرُودَةُ تلتفُّ فِي
قَدَمَيَّ وَ فِي زُرْقَةِ الطُّرُقِ الْمُوحِشَاتِ الْمَصَابِيحُ تُطْفَأُ هَسْهَسَةُ الْغُرَبَاءِ الْعَصَافِيرُ
تَسْحَبُ أَجْنِحَةَ الغَيْمِ لِلْفَلَكِ الشَّفَقِيِّ الْمِظَلَّاتُ تُفْتَحُ فِي الْمَطَرِ الْمُتَفَجِّرِ إِنِّي أُحَدِّقُ
فِي عُمْقِ مِرْآتِهَا الْمَحَطَّةُ قُرْبَ الْحَدِيقَةِ شَاحِبَةٌ وَ الْغَرِيبَةُ فِي الضَّوْءِ تَأْتِي
عَلَى مَهَلٍ يَدُهَا خَطْفَةٌ لِلْمَجَرَّاتِ وَ الْبَرْقِ وَالآلَبُوسِ فَمَاذَا عَسَاكِ تَقُولِينَ
مَاقُلْتِ شَيْئاً وَفِي وحدتِي الآنَ أَرْقُبُ عَبْرَ الزُّجَاجِ النَّدِيِّ المحطّاتِ تُقْفِرُ سَيَّارَةٌ
تَتَرَاجَعُ تَحْتَ جِدَارٍ وَ وَجْهاً تَفَرُّ بِهِ الحافلاتُ وَ ضَوْءاً صَغِيراً مَعَ الْفَجْرِ فِي
الطَّابِقِ الثَّالِثِ الرِّيحُ تَنْهَشُ أَرْدِيَةَ الْعَابِرِينَ الْحِجَارَةُ وَ الْبَرْدُ وَالْوَرَقُ الْأَحْمَرُ
المتطايرُ فِي الْفَجْرِ وَ الْمَطَرُ الْعَصَبِيُّ الْمِظَلَّاتُ تُسْرِعُ فِي السُّبُلِ الْمُتَفَرِّعَةِ الْفَتَيَاتُ
تَضَاحَكْنَ فِي الْحَافِلَاتِ الْمَلِيئَةِ أَسْمَعُ إِسْمَكِ أَبهتُ مُلتفِتاً (تِلْكَ إِحْدَى الْبَنَاتِ تُنَادِي
صَدِيقَتَهَا)

أَجْفَلَ الرَّغْدُ صَكَّ أَقَاصِي الْمَدِينَةِ ماذا عساكِ تقولِينَ إِنِّي أَرَى غُزْلَةً عُتْمَةً
وَرَقاً ذَهَبِياً تَسِفُ بِهِ الرِّيحُ رَائِحَةَ السَّيِّداتِ يَجِئْنَ مِنَ الْمَطَرِ الْهَمَجِيِّ
الْمَسَاحِيقَ وَ الْبَسَمَاتِ فماذا تقولينَ هَلْ قُلْتِ شَيْئاً وَ كيفَ الْبِدَايَةُ مِنْكِ وَ
كيفَ البدايَاتُ كَانَتْ دَماً أَمْ حَرِيراً وَ لِاسْمِكِ أَيُّ مُسَمًّى وَ هَلْ تَعْبُرِينَ الْمَحَطَّاتِ
وَحْدَكِ فِي أَيِّ ثَوْبٍ تَطُوفِينَ أَيُّ اتِّسَاعٍ لِعَيْنَيْكِ أَيُّ رَبِيعٍ غَدَائِرُكِ السُّمْرُ قُولِي إِلَى
أَيِّ لونٍ تُرَى أَنْتِ مَنْ و بِأَيِّ كَلَامٍ إِلى أَيِّ مَمْلَكَةٍ هَلْ
تَسَاءَلْتِ كَيْفَ مِنَ النَّارِ وَ الثَّلْجِ وَجْهُكِ مَاذَا عَسَاكِ تَقُولِينَ لِي

فِي الزَّوَاقِ الْمُجَصَّصِ لَيْسَ سوى الغيم وَالوحشة الخائط المترنّح عبر المتاهات
فِي لُجَّةِ الهجرةِ الْفَلَكِيةِ يا أَيُّهَا الحجرُ المتراصفُ مِثْلَ القوامِيس إِنشقَّ عَنْ
وَجهها الملكيِّ فظَلَّي عَبْرَ الجداراتِ يَكْبُو على ظُلْمَةِ الْجِصِّ أَوْ فِي
رُطوبَةِ ليلِ المعابر يا أيها الحجرُ المتراصِفُ ظِلِّي الدُّخَانُ أَوِ القشُّ فِي لُجَّةِ
الأَقْيَانُوسِ وَ ينفجرُ الضَّوءُ فِي وَجْهِهَا الغريبَةُ تأتي متوّجَةً بالفُجَاءَةِ وَ الياسِمِينِ
الْفَتَاةُ الغريبَةُ تعبُرُ نحوي الفضاءَ الْفَتَاةُ الرَّهِيبَةُ تأتي عَلَى مَهَلٍ كُلُّ صَمْتٍ
حَوَالَيْهَا يَشْحَبُ أَوْ يَذْهَلُ الآنَ لَا أَلْمَحُ مِنْ طَيْفِهَا غَيْرَ خصْلَتِهَا أَوْ
أَصَابِعَهَا الْمُتَأَلِّقَةَ النُّورُ أَبْيَضُ بيضَاءُ خُطوَتُهَا الْمَلَكِيَّةُ عَبْرَ الزُّجَاجِ عَلَى
الْجِصِّ عِنْدَ النَّوَافِذِ فِي مُدُنٍ كالقَوامِيسِ

يَا أَيُّهَا الحجرُ الْمُتَرَاصِفُ لَا أَلْمَحُ الآنَ شيئاً سِوَى شَبَحِي عَبْرَ عَطْفَةِ
أَرْوِقَةِ الْجِصِّ تنهَشُهُ الرِّيحُ مِثْلَ مُفَزَّعِ طَيْرٍ حَصِيٍّ فِي الطَّرِيقِ العِمَارَاتُ تَرْقُصُ مائلةً
كالْقَوَارِيرِ وَ الورقُ الأَحْمَرُ الْمُتَدَاوَلُ طَيَّ الْعَوَاصِفِ كَيْفَ آخْتَفَى وَجْهُهَا الْمَلَكِيُّ
وَ هَلْ سأَرَى طَيْفَهَا مَرَّةً فَمَوَاجِعي اليَوْمَ فِي الأَوْجِ أحزاني اليوم لا
توصف اليوم أَصْبَحْتُ أَعْزَلَ كَيْفَ سَأَسْأَلُكِ يَا أَيُّهَا الْحَجَرُ الْمُتَرَاصِفُ
كَيْفَ.

وَفِي وَحْدَتِي الآنَ أَضْحَكُ مِنِّي وَ أَضْحَكُ مِنْ حُلْمِي الْمُتَرَهِّلِ مُنْكَفِئاً
فَوْقَ حَاجِزِ مَقْهَى الْمَطَارْ

محمّد كمال المدائني